دور المرأة السياسي الاجتماعي في العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ – ٨٥٠ هـ) السيدة زبيدة وزوجات الخلفاء أنموذجاً

م.م.تيسير عماد مرزوك

taiser.19822020@gmail.com

مديرية تربية كربلاء

الملخص

نالت المرأة مكانة كبيرة في الإسلام، حيث رفع من قيمتها ومكانتها , ومنحها الوظائف التي تتناسب مع إمكانياتها , من هذا المبدأ شهدت المرأة كونها تمثل نصف المجتمع تطورات عديدة في مختلف العصور الإسلامية عامة , والعصر العباسي خاصة، السبب في ذلك يعود إلى التمازج الحضاري والثقافي بين الشعوب، ونتيجة لذلك فقد كان للمرأة العباسية خاصة زوجات الخلفاء، لاسيما السيدة زبيدة دوراً فاعلاً وتأثيراً واضحاً في الجانب السياسي من خلال تعيين ولاة العهد وصنع القرارات السياسية وفي اختيار الخليفة، كذلك الأمر في الجانب الاجتماعي من خلال البناء والتشييد وصرف الأموال الكثيرة على الأوقاف .

كلمات مفتاحية : دور المرأة، العصر العباسي، الجانب السياسي، الجانب الاجتماعي، السيدة زبيدة .

The Political and Social Role of Women in the First Abbasid Era (132 – 232 AH / 750 – 850 AD)

Lady Zubaida and the Wives of the Caliphs as a Model

Abstract

Women gained a great status in Islam, as it raised their value and status, and granted them jobs that were appropriate to their capabilities. From this principle, women, as they represent half of society, witnessed many developments in various Islamic eras in general, and the Abbasid era in particular. The reason for this is due to the cultural and civilizational blending between peoples. As a result, Abbasid women, especially the wives of the caliphs, especially Lady Zubaida, had an

effective role and a clear influence in the political aspect through appointing crown princes, making political decisions, and choosing the caliph. The same applies to the social aspect through building, construction, and spending large sums of money on endowments and others.

Keywords:The role of women , the Abbasid era, the political a spect , the social aspect, Lady Zubaida.

مقدمة :

تطور ورقي وحضارة أي مجتمع من المجتمعات في أي عصر من العصور الإسلامية، تأتي من خلال تقديره لدور المرأة وعطائها في بناء المجتمع بشكل صحيح، ففي العصر الإسلامي نراها المشاركة والمناصرة للإسلام منذ بداية دعوته , وإذا ما انتقلنا إلى العصر الأموي نراه قد بلغ شأناً عظيماً في تكريمها، إذ لم تكن بعيدة عن بناء الحضارة العربية الإسلامية، بل كانت ركناً أساسيا في تكوينها، وقد رصدت كتب كثيرة دورها الحضاري، أمافي فترة بحثنا التي بصددها فقد نظر إلى المرأة من موضع الاهتمام حيث وردت الكثير من الأحاديث والروايات عن سلطة النساء في ذلك العصر، فقد كانت لهن الكلمة النافذة والمؤثرة على أغلب الخلفاء، إلا أن ذلك لا يعد تقليلاً من قيمة ومكانة الدولة العباسية، كون أن النضج الفكري والاجتماعي والحضاري، بلغ أوجه في عهدها، حيث كانت بغداد قبلة مدن العالم الإسلامي بعلمائها وأدبائها، من هذا المنطلق أردنا الخوض في المجالات السياسية والأجتماعية لها خلال فترة البحث العصر العباسي الأول، إذ أن تدخل نساء الخلفاءفي شؤون الحكم والسيطرة على الخلفاء العباسيين من أجل الوصول إلى الحكم بطريقة غير مباشرة , كانت سمة بارزة لذلك العصر .

إشكالية البحث :

البحث في هذه الدراسة من أجل معرفة والأطلاع على الأثر الحقيقي لدور المرأة في العصر العباسي الأول سواء من الناحية السياسية والاجتماعية من خلال إعطاء صورة بارزة عن دور نساء العصر العباسي داخل شؤون الدولة العباسية والمتمثل بزوجات الخلفاء، إضافة إلى انعكاس هذا الدور على الجانب الاجتماعي .

أهمية البحث :

تأتي أهمية البحث كون أن المرأة تشكل نصف المجتمع وتمثل ثقلاً كبيراً في أسرتها ومجتمعها، ورغم عظمة دورها في الكثير من نواحي الحياة، فإن الكثير من المصادر لم تتحدث عن دورها

السياسي والاجتماعي بشكل واضح إلا بشكل شذرات متناثرة , وهذا بدوره يطرح مجموعة من التساؤلات التي ستتم الإجابة عليها أهمها :

١.من هي السيدة زبيدة ؟

٢.كيف تجلى دور زوجات الخلفاء والسيدة زبيدة في الجانب السياسي ؟ وما مدى تأثير النساء في صنع القرارات السياسية ؟

٣.ما هو الدور الاجتماعي الذي قامت به السيدة زبيدة ؟

أولاً : حياة السيدة زبيدة :

١. اسمها ونسبها ولقبها :

هي زبيدة بنت جعفر بن أبي المنصور [١] عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله العباس الخليفة العباسي الذائع الصيت، من سادات قريش [٢] وتسمى أم العزيز [٣]، أم الفضل [٤] , وأم محمد، لكن أغلب المصادر أطلقت عليها (أم جعفر) [٥] .

وقد لقبت (زبيدة) من قبل جدها المنصور حيث كان شديد الإعجاب بجمالها، وشديد الحب لها , إذا كان يلاعبها ويرافقها وهي صغيرة ويقول : ""إنما أنت زبيدة"" [٦]وبقيت هذه التسمية مرافقة لها حتى وفاتها .

٢. نشأتها :

ذكرت المصادر التاريخية بأغلبها انه تمت ولادة السيدة زبيدة سنة (١٤٥ هـ / ٧٦٤ م) في منزل والدها المعروف بقصر حرب [١] قرب الموصل .

(١) الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت) , تاريخ بغداد , دار الغرب الإسلامي , بيروت , ٢٠٠١ , ط ١ , ج ٦ , ص ٦١٩ – ٦٢٠ .

(٢) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) , وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان , تحقيق محمد عبد الحميد , مكتبة النهضة المصرية , القاهرة , د . ت , ج ٢ , ص ٧٠ .

(٣) ابن كثير (أبو الفداء اسماعيل القرشي) , البداية والنهاية , مطبعة السعادة , مصر , د . ت , ج ١٠ , ص ٨٣١ .

(٤) الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي) , العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين , تحقيق محمود الطناحي , مطبعة السند المحمدية , القاهرة , ١٩٦٩ , ج ٨ , ص ٢٣٦ .

(٥) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) , المعارف , صححه وعلق عليه محمد اسماعيل عبد الله الصاوي , المطبعة الإسلامية , مصر , ١٩٣٤ , ص ١٦٥ ؛ الطبري (محمد بن جرير) , تاريخ الرسل والملوك , تحقيق محمد ابارهيم أبو الفضل , دار المعارف , القاهرة , ١٩٦٧ , ج ٨ , ص ٣٥٩ .

(٦) الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد) , الديارات , تحقيق كوركيس عواد , مكتبة المثنى , بغداد , د . ت , ط ٢ , ص ١٥٧ .

اتصفت بأنها كانت صاحة دين وتقى وتقوم بأعمال الأحسان وحب الخير [٢]، وجعلت منزلها، مدرسة لحفظ القرآن الكريم، كما قال عنها الخطيب البغدادي : ""عرفت بأعمال الخير والأحسان، والإفضال على أهل العلم، والبر للفقراء والمساكين وتتفقد أحوالهم"" [٣]، فقال الشاعر مروان بن أبي حفصة في حقها :

رحجت زبيدة والنساء شوائ والله أرجح بالتقى فيزانها [٤]

كما عرف عنها أنها ذات فصاحة وبلاغة واتزان وأنها ذو رجاحة عقل، فحين تم قتل الأمين (١٩٣ – ١٩٨ هـ / ٨٠٩ – ٨١٣ م) لم تعمل على أخذ حقها وثأرها من المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ / ٨١٣ – ٨٣٣ م) والدليل على ذلك أنه عندما دخل عليها شقيق ابنها المأمون بغداد قالت له : ""أهنئك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابناً خليفة لم ألده ... وأسأل الله أجراً على ما أخذ، وإقناعاً بما عوض"" [٥] .

أما بالنسبة لزواجها , فقد زفت إلى هارون الرشيد سنة (١٦٥ هـ / ٧٨٢ م) وأقيم حفل زواجها في دار محمد بن سليمان [٦]، وكان حفل زفافها من الحفلات الشهيرة في التاريخ، حيث اهتم المهدي بمراسيم ذاك الزواج اهتماماً كبيراً، وزع خلاله الأموال والهدايا على الحاضرين، وقد وصف زواجها بأنه لا مثيل له في الإسلام [٧]، رزقت زبيدة بولدها (محمد الأمين) سنة (١٧٠ هـ / ٧٨٧ م) [٨] إن لم تكن في بنات هاشم عباسية ولدت خليفة إلا هي .

(١) ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الواحد الشيباني) , الكامل في التاريخ , مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق , دار الكتب العلمية , بيروت , ١٩٨٧ , ج ٥ , ص ١٧٦ ؛ الجومرد (عبد الجليل) , هارون الرشيد , مطبعة دار الكتب , بيروت , ١٩٥٦ , ج ١ , ص ١٥٠ .

(٢) المسعودي (علي بن الحسن بن علي) , مروج الذهب ومعادن الجوهر , تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد , المكتبة السلفية , بيروت , د . ت , ج ٤ , ص ٣١٧ ؛ ابن خلكان , وفيات الأعيان , ج ٢ , ص ٧٠ .

(٣) الخطيب البغدادي , تاريخ بغداد , ج ١٦ , ص ٦١٩ .

(٤) البيهقي (ابراهيم بن محمد) , المحاسن والمساوئ , تحقي قمحمد أبو الفضل ابراهيم , مكتبة نهضة مصر , القاهرة , د . ت , ج ٢ , ص ١٥٣ .

(٥) الخطيب البغدادي , تاريخ بغداد , ج ١٦ , ص ٦١٩ .

(٦) محمد بن سليمان : هو أبو عبد الله بن علي العباسي , ولد بالحميمة من أرض البلقاء , تولى إمارة البصرة أيام المهدي وفارس سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٧ م) وأخته العباسية وتوفي بالبصرة , الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) , الوافي بالوفيات , اعتناء هلموت رينثر , دار فارنز ستايز للنشر , فيسباون , ١٩٦١ , ج ٣ , ص ١٢٠ .

(٧) الشابشتي , الديارات , ص ١٥٧ .

(٨) الطبري , تاريخ الرسل والملوك , ج ٨ , ص ٢٣٣ .

أما وفاتها فهناك العديد من الروايات حول وفاتها، إذ أشارت أغلب المصادر إلى أن وفاتها كانت سنة (٢١٦ هـ / ٨٣١ م) [١] في بغداد , بينما آشار آخرون إلى أن وفاتها كانت سنة (٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) [٢] .

ثانياً : الدور السياسي لزوجات الخلفاء والسيدة زبيدة :

عرف العصر العباسي بأنه عصر تميز بالانفتاح الثقافي والتمازج الحضاري مع مختلف الأمم والشعوب، فأدى ذلك إلى حدوث تغير جذري في بنية المجتمع العباسي وتقاليده، خاصة بينة المجتمع النسائي، حيث أعطت النساء الكثير من الحرية، وهذا ما سمح لها بدخولها إلى المجال السياسي، إذا كان لها حضور قوي استطاعت من خلاله أن تؤدي دوراً كبيراً في الدولة , ابتدأ من المشاركة في العمل على تحقيق نجاح الدعوة العباسية، إلى تدخلها في أمور الحكم [٣] , واختيار الخلفاء , وولاة العهد، وهذا أدى بدوره إلى بروز بعض النساء في بلاط الخلافة العباسية من أمهات وزوجات كانت لهن نفوذ وسلطات واسعة غطت على سلطات أنفسهم، ومنهم أم سلمة المخزومية [٤] الذي ظهير اسمها واضحاً مع بداية العصر العباسي على على مسرح الأحداث السياسية، فاستطاعت بذكائها من استثمار وجودها عند زوجها أبي العباس فكان وجودها له الفضل في منح الخلافة لأبي جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ / ٧٥٣ – ٧٧٤ م)، رغم أن أبا العباس كان يعمل على اعطاء الخلافة من بعده لولده محمد [٥]، والسبب الذي دفعها لهذا الفعل هو أنها رأت أن ولدها ما يزال صغير السن ولا يستطيع مجابهة الأزمات التي قد تتعرض لها الخلافة، أو لأنها كانت تنظر بعين الحذر والخشية من المنصور على ولدها لكونه يمتلك صفات تؤهله لشغل منصب الخلافة إذ كان على درجة كبيرة مع رجاحة العقل والصراحة [٦] وهذا إن دل على شيء، فهو يدل أنها غلبت على السفاح وأنه كان لا يقطع

(١) اليعقوبي (أحمد بن ابي يعقوب بن واضح) , تاريخ اليعقوبي , تقديم وتعليق محمد صادق بحر العلوم , المطبعة الحيدرية , النجف , ١٩٧٤ , ج ٣ , ص ٢٠٦ .

(٢) ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن) , النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة , المؤسسة المصرية العامة للتأليف , القاهرة , د . ت , ج ٢ , ص ٢١٣ .

(٣) عاشور (حنان محمد علي) , دور المرأة في المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢هـ / ٧٥٠ – ٨٤٧ م) , ليبيا , ٢٠٠٨ , ص ٢١ .

(٤) أم سلمة المخزومية : وهي أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية , ارمأة حازمة تزوجها الخليفة أبو العباس السفاح , ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله) , أعلام النساء , تحقيق محمد عبد الرحيم , دار الفكر , بيروت , ٢٠٠٤ , ص ٦٤ .

(٥) هو محمد بن أبي العباس السفاح , أراد والده أن يجعله ولياً للعهد من بعد غير أنه كان سغير السن , ثم عهد لأبي جعفر بذلك بدلاً منه , البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) , أنساب الأشراف , حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار , رياض زركلي , دار الفكر , بيروت , ١٩٩٦ , ط ١ , ج ٤ , ص ٢٣٨ .

(٦) البلاذري , أنساب الأشراف , ج ٤ , ص ٢٣٨ .

يقطع أمراً لها دون مشورتها [١]، كذلك هناك أم موسى الحميرية [٢]، رغم أنه لم يكن لها دور بالسياسة، بسبب أن الخليفة المنصور لم يسمح لها أن يتعدى سلطانها سلطانه [٣] , اشترطت وكتبت عليه الكتب والمواثيق بأن لا يتزوج ولا يتسرى عليها إلا بأمرها [٤]، كذلك هذاك لبابه بنت بنت جعفر [٥] زوجة الخليفة موسى الهادي، والسيدة بوران [٦] زوجة الخليفة عبد الله المأمون لكنهما لم يكن لهما أي دور سياسي يذكر .

لكن من أشهر النساء وكان لهم صولة وجولة في هذا الجانب الخيرزان (ت ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م) [٧] والسيدة زبيدة (ت ٢١٦ هـ / ٨٣١ م) [٨] .

فالخيزارن زوجة المهدى وأم الخليفتين الهادي والرشيد، كانت أول أمرأة استبدت بالحكم في الإسلام خلال المدة الممتدة (١٥٨ – ١٧٣ هـ / ٧٧٥ – ٧٨٩ م) , كانت من مولدات اليمن، وقد ساقها القدر لتصبح من أشهر النساء في العصر العباسي , حظيت بمكانة كبيرة مند عهد المنصور الذي قدمها هدية لابنه المهدي، فاستحظى بها وقدمها على جميع نسائه، بلغت الخيزران ذروة الشهرة كونها كانت إمرأة قوية تحب النفوذ وشهوى السلطان، فتركت بصمة قوية عند المهدي، فكانت الآمرة الناهية [٩] , تقرب من تشاء من رجال الدولة سواء من الوزراء والعلماء، وبعدت من أرادت، فأدرك الكثيرون من فنزلتها عند زوجها فكانوا يتوجهون أليها لتقنع

(١) المسعودي , مروج الذهب , ج ٣ , ص ٢٧٥ .

(٢) هي زوجة الخليفة أبو جعفر المنصور , وأبوها المنصور بن عبد الله بن يزيد الحميري وتدعى أروى , كان زواجها سنة (١٣٦ هـ / ٧٥٣ م) , ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) , العقد الفريد , تحقيق عبد المجيد الرصيني , دار الكتب العلمية , بيروت , ١٩٨٧ , ط ٢ , ج ٧ , ص ١١٣ .

(٣) المنجد (صلاح الدين) , بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي , دار الحياة , بيروت , ١٩٥٧ , ص ٧ .

(٤) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) , المحاسن والأضداد , تحقيق فوزي عطوي , بيروت , ١٩٦٩ , ص ١٣٧ .

(٥) لبابة بنت جعفر : هي لبابة بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور وزوجة الخليفة موسى الهادي , كانت لها مكانة مرموقة ومحبة كبيرة عند زوجها الخليفة الهادي , الأزدي (أبو الحسن علي بن ظافر) , أخبار الدول المنقطعة , تحقيق عصام عقلة , دار الكندي , الأردن , ١٩٩٩ , ج ٢ , ص ٣٣٣ .

(٦) السيدة بوران : هي بنت الحسن بن سهل زوجة عبد الله المأمون كانت من أعقل النساء وأجملهن وأكرمهن كان زواجها زواجها سنة (٢٠٢ هـ / ٨١٧ م) , المسعودي , مروج الذهب , ج ٤ , ص ٣٠ .

(٧) الزركلي (خير الدين) , الأعلام , دار العلم للملايين , بيروت , ٢٠٠٢ , ط ١٥ , ج ٢ , ص ٣٢٨ .

(٨) الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان) , سير أعلام النبلاء , تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون , مؤسسة الرسالة , بيروت , ١٩٨٥ , ط ٣ , ج ١٠ , ص ٢٤١ .

(٩) ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) , الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية , بيروت , د . ت , ص ١١٩ .

المهدي بقضاء حوائجهم، وكان المهدي يستجيب لطلبها لما لها من منزلة عنده [١] كما سمح لها لها أن تتدخل في جميع الأمور، وأصبحت ذات كلمة نافذة وصاحبة قرار، فتمتعت بكثير من النفوذ السياسي، وتوسع هذا الدور في ولاية ابنها الخليفة موسى الهادي [٢] , فسلكت نفس مسلكها مع أبيه المهدي في الاستبداد بالأمر والنهي [٣]، حيث ازداد تدخلها في شؤون الدولة في في عهد ابنها الذي كان يطيع أوامرها أول الأمر ويلبي حاجاتها , إذ كان كثيراً للهو ولا يقيم للخلافة أي عظمة ولا أبهة [٤] .

لكن الهادي فيما بعد ونتيجة غيرته على النساء كره تدخل أمه في أمور السلطة [٥] , فنهاها عن عن ذلك، عند ذلك كفت الخيزران وتحول ميلها إلى هارون الرشيد، وسعت لكي تأخذ له الخلافة بعد ابتعادها عن الخليفة الهادي، فلم تدخل عليه إلا وقت وفاته , حيث سعت إلى قتله من خلال الاستعانة ببعض جوار لها حيث أمرتهن بتغطية وجهه والجلوس فوقه فقتلته بتحريض منها [٦] , ويعود السبب في تخلصها السريع من موسى الهادي معرفتها بأنه أراد خلع هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، لذلك قامت بقتله سنة (١٧٥ هـ / ٧٨٦ م) [٧] لكي تواصل التدخل في شؤون الدولة على عهد ابنها الرشيد إذ ما ولى الخلافة، لذلك عندما تولى هارون الرشيد الخلافة، تعززت مكانة الخيزران في عهده لأنه كان يقدر موقفها لوقوفها إلى جانبه، ومعارضته لموسى الهادي , وكان الرشيد لا يعصي لها أمراً، حيث أصبحت المتحكمة في شؤون الدولة، اذ كان يحيى بن خالد البرمكي يقدم لها عرضا عن سير أمور الدولة، ويصد الأوامر عنها [٨]، كما أدت الخيزران دوراً مهما وكبيراً في الصراع القائم بين الفرس والعرب في خلافة الرشيد، وأسست علاقات وثيقة مع الكثير من الأسر ذات الأصول الفارسية، بدليل أنها ولت يحيى البرمكي الكثير من أمور الدولة، رغم أن الرشيد مال إلى تولية الفضل بن الربيع وهو عربي بعض أمور الدولة، هذه الجوانب بكاملها توضح الدور السياسي الذي قامت به الخيزران في الدولة العباسية منذ عهد المهدي إلى عهد الرشيد، وهذا يدل على المكانة التي تمتعت بها إلى أن توفيت في خلافة هارون الرشيد سنة (١٧٣ هـ / ٧٨٩ م) .

(١) الطبري , تاريخ الرسل والملوك , ج ٤ , ص ٦٢ .

(٢) موسى الهادي : هو أبو محمد موسى بن محمد المهدي ولد سنة (١٤٦ هـ / ٧٦٣ م) , كان غيوراً على الدولة , شهماً بويع بالخلافة يوم وفاة والده سنة (١٧٠ هـ / ٧٦٨ م) , توفي في نفس العام , السيوطي (جلال الدين) , تاريخ الخلفاء , تحقيق محمد محي الدين , القاهرة , ١٩٥٢ , ص ٢٢٥ .

(٣) الطبري , تاريخ الرسل والملوك , ج ٦ , ص ٤٢١ .

(٤) السيوطي , تاريخ الخلفاء , ص ٢٧٩ .

(٥) ابن الطقطقي , الفخري في الآداب السلطانية , ص ١٧٢ .

(٦) ابن تغري بردي , النجوم الزاهرة , ج ٢ , ص ٦٤ .

(٧) ابن الأثير , الكامل في التاريخ , ج ٦ , ص ١٠٠ .

(٨) ابن كثير , البداية والنهاية , ج ١٠ , ص ١٦١ .

أما بالنسبة للسيدة زبيدة فنلاحظ أن تدخلها بالمجال السياسي لم يكن تدخلاً مباشراً , أو من أجل السيطرة على الحكم , والاستحواذ على المكانة العالية [١]، والدليل على ذلك ما ورد في المصادر والمراجع عن اشارات صغيرة , إلا أنها ليست أفعالاً سياسية محددة، ولذلك فقد اقتصرت مشاركة السيدة زبيدة وتدخلها في أمور الدولة على ناحيتين :

- الأولى موقفها من البرامكة .
- الثانية تتعلق بولاية العهد بالسنة للبرامكة [٢] .

كانت علاقة السيدة زبيدة بهم علاقة سيئة على عكس الخيزران التي ناصرتهم ودعمت العنصر الفارسي , ويعود السبب في ذلك إلى تصرفاتهم المناوئة للدولة العباسية إذ كانت على علم ودراية بنياتهم العدوانية، والدليل على ذلك أن يحيى البرمكي كان يبخل في النفقة عليها فأخذت تشكوه باستمرار عند زوجها الرشيد , ورغم ذلك استمر يحيى البرمكي بالإساءة إلى زبيدة [٣]، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على موقف شخصي أو تدخل في الحكم، إنما هو موقف سياسي مناوئ للدولة العباسية، كون السيدة زبيدة زوجة الرشيدة , يضاف إلى ذلك استحواذ البرامكة على الأموال والعمل على صرفها دون استشارة الخليفة حتى وصل بهم الحد أن الرشيد عندما كان يطلب المال لا يصله إلا القليل فتغلبوا عليه وشاركوه سلطانه , وهذا الأمر أكده بنفسه حيث قال: ""استبد يحيى بالأمور دوني فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها [٤]، لكنه لم لم يقف مكتوف الأيدي فتخلص منهم وذلك سنة (١٨٧ هـ / ٨٠٢ م)، من خلال مصادرة أملاكهم [٥] وأموالهم، وأمر بقتل جعفراً وحبس يحيى والفضل، وبعد هذا أيدت زبيدة الخليفة الرشيد على استحواذ الفضل بن الربيع، وبعد هذا الموقف سياسياً للسيدة زبيدة وليس تدخلاً في الحكم .

أما موقفها السياسي والذي برز بشكل واضح كان في مسألة ولاية العهد حيث أرادت السيدة زبيدة أن تكون البيعة لابنها (محمد الأمين)، وحجتها في ذلك بأنه هاشمي الأبوين [٦] , وليس ابن جارية جارية كأخيه عبد الله المأمون، وفي هذا دليل على حنكتها السياسية وبعد نظرها في الحد من

(١) عاشور , دور المرأة في المجتمع الإسلامي , ص ٢٨ .

(٢) البرامكة أسرة فارسية من مدينة بلخ أخذت اسمها من وظيفة جدها الذي عمل برمكاً (سادناً) للمعبد البوذي في بلخ , والذي دخل في الإسلام هو وأبناؤه , وثم التحق ابنه خالد بن برمك بالدعوة الإسلامية وأصبح أحد دعاتها , اليعقوبي , تاريخ اليعقوبي , ج ١ , ص ٥٣٨ .

(٣) المسعودي , مروج الذهب , ج ٣ , ص ٣٨٦ ؛ ابن خلكان , وفيات الأعيان , ج ١ , ص ٢٩٧ .

(٤) ابن الطقطقي , الفخري في الآداب السلطانية , ص ١٧١ .

(٥) اليعقوبي , تاريخ اليعقوبي , ج ٣ , ص ١٦٤ ؛ ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون) , تاريخ مختصر الدول , طبع انطوان صالحاني اليسوعي , دار الرائد العربي اللبناني , لبنان , ١٩٨٣ , ص٢٢٤ ؛ المسعودي , مروج الذهب , ج ٣ , ص ٣٦٤ .

(٦) ابن الطقطقي , الفخري في الآداب السلطانية , ص ٢١٢ .

سيطرة التيار الفارسي، وأيدها في رأيها عدد من شيوخ بني هاشم , حيث يذكر السيوطي [١] بأن الرشيد بايع محمد الأمين لحرص أمه زبيدة على ذلك , وميل بني هشام إليه، وبلغ من اهتمام السيدة زبيدة وحرصها على تولية ابنها ولاية العهد، أن الرشيد بايع له بولاية العهد سنة (١٧٥ هـ / ٧٩١ م)، وعمره خمس سنين [٢]، لأنها كانت على علم بأن الرشيد كان لا يزال واقعاً تحت تأثير الفرس، فدعا أمراء بيته ورجال حاشيته، وأخرج ابنه محمد إلى الحاضرين حين قال عبد الصمد بن علي عم أبي جعفر المنصور :"" أيها الناس لا تنغروا بصغر السن، فإنها الشجرة المباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء هو وجعل جعل الرجل من بني هاشم يقول في ذلك حتى انقض المجلس"" [٣] .

وقال الرشيد : ""لولا أم جعفر وميل بني هاشم إليه لقدمت عبد الله المأمون عليه"" [٤] , وهناك العديد من الروايات التاريخية تذكر أن الرشيد أراد أن يثبت للسيدة زبيدة كفاءة المأمون وأحقيته بولاية العهد أكثر من الأمين من خلال اختيار أجراه لهما وبين لها أن حبه لولديه، إلا أن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان أهلاً لها ولها مستحقاً .

وهكذا نرى أن تدخل السيدة زبيدة في أمور الدولة في تولية العهد والحد من سيطرة العنصر الفارسي، نما عن حسن تصرف في الأمور السياسية يضاف إلى ذلك أنه عندما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون , بسبب أن الأمين افتتح خلافته بالغدر بأخيه المأمون وخلعه من ولاية العهد [٥]، حاول البعض تحريضها على الدخول في الصراع القائم بين الأمين والمأمون، وبعد مقتل ابنها أيضاً طلبوا منها الخروج للطلب بثأره، لكنها لم تفعل ورأت أنه ليس للنساء التدخل في طلب الثأر ومنازلة الأبطال [٦] لكي لا تزيد الفتنة اشتعالاً، ومما يدل على بعد نظرها وحسن تصرفها ودرايتها السياسية، أنه عندما تولى المأمون أمر الخلافة بعثت إليه تهنئه بذلك حيث كتبت إليه ""أهنئك بخلافة قد هنأت بها نفسي عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابناً لم ألده"" [٧] .

(١) السيوطي , تاريخ الخلفاء , ص ٢٣٢ .
(٢) السيوطي , تاريخ الخلفاء , ص ٢٩٠ .
(٣) اليعقوبي , تاريخ اليعقوبي , ج ٢ , ص ٤٠٨ .
(٤) السيوطي , تاريخ الخلفاء , ص ٣٠٩ .
(٥) ابن كثير , البداية والنهاية , ج ١٤ , ص ١٠٦ .
(٦) المسعودي , مروج الذهب , ج ٣ , ص ٤٢٣ .
(٧) الخطيب البغدادي , تاريخ بغداد , ج ١٤ , ص ٤٣٣ – ٤٣٤ .

ثالثاً : الدور الاجتماعي لزوجات الخلفاء والسيدة زبيدة :

اسهامات المرأة ودورها في فترة البحث لم يقتصر فقط على الجانب السياسي بل قامت أيضاً بدوراً اجتماعي واقتصادي بنفس الوقت متمثلاً بإقامتها المنشأت والإصلاحات في مرافق الدولة [١]، فقد كان لزوجات خلفاء العصر العباسي الأول اهتمام كبير بالأعمال الاجتماعية والعمرانية، فقد عرف مثلاً عن الخيزران كثرة الإنفاق في أبواب الخير والصدقات [٢]، فعند خروجها (١٧٢ هـ / ٧٨٨ م) للحج قسمت المدينة أموالاً على اليتامى و الفقراء والمحتاجين، وزوجت أيتاماً وكست كسوة كثيرة، يضاف الى ذلك قيامها بأعطاء كل قبيلة مبالغ معنية من المال من أجل قضاء حوائج وأمور حياتها [٣] .

كذلك أيضا السيدة زبيدة إذ تشير المصادر التأريخية أنها قامت بالعديد من الأعمال الاجتماعية، من هذه الأعمال قيامها بأداء فريضة الحج مرات عديدة، وكان لها في هذه الفرائض جميعها أعمال بر وخير، من ذلك أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرواية [٤] عندهم بدينار [٥]، بعد أدراكها ما كان يعانيه أهلها من مشاق الحصول على الماء فأمرت وكيلها بإحضار المهندسين لتوصيل الماء إلى مكة مهما بلغت التكاليف، فأخذوا يصلون بين منابع الماء معتمدين على عين حنين، حتى وصل الماء الى مكة [٦] .

وعرفت لك العين بعين البشماش، كذلك كان لها اليد الطولى في تحديد معالم الطريق بالأميال ليعرف الحجاج المسافات التي قطعوها [٧], كما أنها حملت هدية ابنها الأمين عندما حجت بعد وفاة زوجها الرشيد سنة (١٩٣ هـ / ٨٠٨ م) لمكة المكرمة والتي بلغت عشرين ألف مثقال ذهب، حيث استخدم صفائح ومسامير لباب الكعبة المشرفة , كما تفقدت القلاع والمستودعات والقنوات المتعلقة بالعمل [٨] أثناء وجودها في مكة، كما أنها قامت ببناء الكثير من البرك والآبار والآبار التي نسبت إليها أيضاً، مثل بركة العنابة وهي بركة مائها ملح غليظ، وبركة أم مقعد وهو

(١) عاشور , دور المرأة في المجتمع الإسلامي , ص ٥١ .

(٢) ابن تغري بردي , النجوم الزاهرة , ج ٢ , ص ٧٢ .

(٣) مؤلف مجهول , العيون والحدائق في أخبار الحقائق , بغداد , د . ت , ج ٣ , ص ٢٩١ .

(٤) الواية : وهي القرية الصغيرة التي تستخدم للماء , الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب) , القاموس المحيط , القاهرة , ١٩٢٥ , ج ٣ , ص ٤٢٧ .

(٥) ابن خلكان , وفيات الأعيان , ج ٢ , ص ٣١٤ .

(٦) المسعودي , مروج الذهب , ج ٤ , ص ٣١٧ .

(٧) ماجد (عبد المنعم) , العصر العباسي الأول , مكتبة الأنجلو المصرية , القاهرة , ١٩٧٩ , ج ١ , ص ٢٢٣ .

(٨) اليعقوبي , تاريخ اليعقوبي , ج ٣ , ص ١٧٦ .

في طريق مكة، وبركة الزبيدية [١] , كما أنها أنشأت الكثير من المنشآت الدينية في بغداد، منها بناء مسجد عرف باسمها(مسجد زبيدة) , كما أنها قامت بأقامة العديد من الاستراحات للحجاج التي تنسب إليها، فنسب إليها المحدث، وهو منزل في طريق مكة وعلى ستة أميال منها , فيه قباب وبركة وآبار ومائها عذب [٢]، كذلك قامت بشراء حائط حنين، وصرفت عنية إلى بركة وجعلت من هذا الحائط بمثابة سداً يجتمع فيه السيل، وهذا العمل لم يقم به أحد من قبلها [٣] .

هذه الأعمال التي قامت بها السيدة زبيدة كانت بهدف إرضاء الله تعالى وميلها لأعمال البر والدليل على ذلك هو أن وكيلها حضر إليها وقال لها لقد تم صرف على الأعمال حتى الآن حوالي أربعمائة ألف درهم فقالت له : ما أردت بهذا القول إلا أن تعنفني وتندمني وتمنعني من الخير اصرف وأتم العمل ولو كانت أضعاف مضاعفة [٤] ونتيجة لقيامها بهذه الأعمال الخيرية، خاصة استخراج المياه للحجاج فقد امتدحها الشعراء ومن ذلك :

سهّله الله بأم جعفر فصار مورداً حميد المصدرج

جادت له بفضة وجوهر ساقية الحجاج ذات المفخر [٥]

ومن أعمال السيدة زبيدة الأخرى هو اهتمامها الكبير بمناطق الثغور في بلاد الشام، إذ نسب إليها أماكن مخصصة للمسافرين، وأوقفت في سبيل ذلك ضياعاً للصرف على الفقراء والمساكن تقدر بـ (ألف دينار)، كما عملت على بناء دار للضيافة سميت (بدار ضيافة زبيدة) [٦] , إذ أنها أنها كانت دار ضيافة ومأوى للمسافرين للراحة والمأكل والمشرب، والجديربالذكروتجدر الإشارة إليه أيضاً أن السيدة زبيدة كان لها اهتماماً كبير بمظاهر الزينة واقتنائها للمجوهرات , إذ اتخذت القباب من الفضية والصندل، وأنواع الحرير بألوانه المتعددة من الأحمر والأصفر، والأزرق،

(١) الحموي (شهاب الدين ياقوت) , معجم البلدان , دار إحياء التراث العربي , بيروت , د . ت , ج ٣ , ص ١٢٣ .

(٢) الحموي , معجم البلدان , ج ٥ , ص ٦٠ .

(٣) النهرواي (قطب الدين محمد بن محمد) , تاريخ القطبي المسمى كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام , مطبعة المدرسة , لايزبك , ١٨٥٧ م , ص ٣٣٥ .

(٤) الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد بن علي) , العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين , مطبعة السنة المحمدية , القاهرة , ١٩٥٩ , ج ١ , ص ١٢٦ .

(٥) الحربي (أبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق) , المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة , تحقيق حمد الجاسر , دار اليمامة للبحث والترجمة , الرياض , ١٩٦٩ , ص ٥٥١ .

(٦) ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي النصيبي) , صورة الأرض , منشورات دار مكتبة الحياة , بيروت , د . ت , ص ١٦٩ .

حتى أن نساء عصرها أخذن يقلدنها ويشبهن بها في أمورهن كلها [١]، كما استخدمت السيدة زبيدة التيجان التي كان قد جهزها بها زوجات الرشيد [٢] .

الخاتمة

بعد دراستنا لبحث دور المرأة السياسي والاجتماعي في الفترة الممتدة من (١٣٢ – ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ – ٨٥٠ م) السيدة زبيدة وزوجات الخلفاء أنموذجاً توصلنا لنتائج لعدة أهمها :

١. أن المرأة في العصر العباسي تمتعت بنفوذ واسع داخل البلاط خلال العصر العباسي الأول في جميع نواحي الحياة .

٢. أوضحت الدراسة أن النساء الحرائر قد تدخلن في شؤون الدولة بشكل يدل على رجاحة العقل وحكمة سياسية بهدف المحافظة على ترسيخ أسس وأركان الدولة، والمحافظة على تواجد العنصر العربي، مثل السيدة زبيدة الذي برز دورها في المجال السياسي وكان أكثر وضوحاً عندما سعت لنيل ولاية العهد لابنها محمد الأمين رغم سنه ومجابهة الفرس والأسرة البرمكية، وصلابتها أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون، ووقوفها إلى جانب المأمون تؤيده وتناصره وتهنيه بالخلافة .

٣. أبانت الدراسة أيضاً تدخل بعض زوجات الخلفاء مني الجواري التي سنحت لهن فرصة الاقتراب من سلطة اتخاذ القرار والتسلط على الأمور، وإدارة شؤون الدولة، مثل الخيزران , إلا أن هذا التدخل كان له أثراً سلبياً تمثل بزيادة الفوضى والاضطراب .

٤. بينت الدراسة الدور الاجتماعي الذي قامت به النساء في العصر العباس حيث كانت دعامة أساسية في المجتمع كالسيدة زبيدة التي قامت بانشاء الكثير من أعمال البر والإحسان لجميع المسلمين , وفي العديد من المدن الإسلامية , فكانت كغيرها من النساء اللواتي اشتهرن في الإسلام عضواً فاعل ومشارك إيجابي في خدمة المجتمع .

المصادر والمراجع

١. الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت) , تاريخ بغداد , دار الغرب الإسلامي , بيروت , ٢٠٠١ , ط ١ .

٢. ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) , وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان , تحقيق محمد عبد الحميد , مكتبة النهضة المصرية , القاهرة , د . ت.

٣. ابن كثير (أبو الفداء اسماعيل القرشي) , البداية والنهاية , مطبعة السعادة , مصر , د . ت .

(١) المسعودي , مروج الذهب , ج ٤ , ص ٣١٧ – ٣١٨ .

(٢) الشابشتي , الديارات , ص ١٥٦ .

٤. الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي) , العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين , تحقيق محمود الطناحي , مطبعة السند المحمدية , القاهرة , ١٩٦٩ .

٥. ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) , المعارف , صححه وعلق عليه محمد اسماعيل عبد الله الصاوي , المطبعة الإسلامية , مصر , ١٩٣٤ .

٦. الطبري (محمد بن جرير) , تاريخ الرسل والملوك , تحقيق محمد ابارهيم أبو الفضل , دار المعارف , القاهرة , ١٩٦٧ .

٧. الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد) , الديارات , تحقيق كوركيس عواد , مكتبة المثنى , بغداد , د . ت , ط ٢ .

٨. ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الواحد الشيباني) , الكامل في التاريخ , مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق , دار الكتب العلمية , بيروت , ١٩٨٧ .

٩. الجومرد (عبد الجليل) , هارون الرشيد , مطبعة دار الكتب , بيروت , ١٩٥٦ .

١٠. المسعودي (علي بن الحسن بن علي) , مرود الذهب ومعادن الجوهر , تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد , المكتبة السلفية , بيروت , د . ت .

١١. البيهقي (ابراهيم بن محمد) , المحاسن والمساوئ , تحقي قمحمد أبو الفضل ابراهيم , مكتبة نهضة مصر , القاهرة , د . ت .

١٢. الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) , الوافي بالوفيات , اعتناء هلموت رينثر , دار فارنز ستايز للنشر , فيسباون , ١٩٦١ .

١٣. اليعقوبي (أحمد بن ابي يعقوب بن واضح) , تاريخ اليعقوبي , تقديم وتعليق محمد صادق بحر العلوم , المطبعة الحيدرية , النجف , ١٩٧٤ .

١٤. ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن) , النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة , المؤسسة المصرية العامة للتأليف , القاهرة , د . ت , ج ٢ , ص ٢١٣ .

١٥. عاشور (حنان محمد علي) , دور المرأة في المجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢هـ / ٧٥٠ – ٨٤٧ م) , ليبيا , ٢٠٠٨ .

١٦. ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله) , أعلام النساء , تحقيق محمد عبد الرحيم , دار الفكر , بيروت , ٢٠٠٤ .

١٧. البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) , أنساب الأشراف , حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار , رياض زركلي , دار الفكر , بيروت , ١٩٩٦ , ط ١ .

١٨. ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) , العقد الفريد , تحقيق عبد المجيد الرصيني , دار الكتب العلمية , بيروت , ١٩٨٧ , ط ٢ .

١٩. المنجد (صلاح الدين) , بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي , دار الحياة , بيروت , ١٩٥٧ .

٢٠. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) , المحاسن والأضداد , تحقيق فوزي عطوي , بيروت , ١٩٦٩ .

٢١. الأزدي (أبو الحسن علي بن ظافر) , أخبار الدول المنقطعة , تحقيق عصام عقلة , دار الكندي , الأردن , ١٩٩٩ .

٢٢. الزركلي (خير الدين) , الأعلام , دار العلم للملايين , بيروت , ٢٠٠٢ , ط ١٥ .

٢٣. الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان) , سير أعلام النبلاء , تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون , مؤسسة الرسالة , بيروت , ١٩٨٥ , ط ٣ .

٢٤. ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) , الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية , بيروت , د . ت .

٢٥. السيوطي (جلال الدين) , تاريخ الخلفاء , تحقيق محمد محي الدين , القاهرة , ١٩٥٢.

٢٦. ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون) , تاريخ مختصر الدول , طبع انطوان صالحاني اليسوعي , دار الرائد العربي اللبناني , لبنان , ١٩٨٣ .

٢٧. مؤلف مجهول , العيون والحدائق في أخبار الحقائق , بغداد , د . ت .

٢٨. الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب) , القاموس المحيط , القاهرة , ١٩٢٥ .

٢٩. ماجد (عبد المنعم) , العصر العباسي الأول , مكتبة الأنجلو المصرية , القاهرة , ١٩٧٩ .

٣٠. الحموي (شهاب الدين ياقوت) , معجم البلدان , دار إحياء التراث العربي , بيروت , د . ت .

٣١. النهرواي (قطب الدين محمد بن محمد) , تاريخ القطبي المسمى كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام , مطبعة المدرسة , لايزبك , ١٨٥٧ م .

٣٢. الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد بن علي) , العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين , مطبعة السنة المحمدية , القاهرة , ١٩٥٩ .

٣٣. الحربي (أبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق) , المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة , تحقيق حمد الجاسر , دار اليمامة للبحث والترجمة , الرياض , ١٩٦٩ .

٣٤. ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي النصيبي) , صورة الأرض , منشورات دار مكتبة الحياة , بيروت , د . ت .